مجلة الحكمة للدراسات الإجتماعية ISSN :2353 - 0529
المجلد1 ، العدد2، (جوان 2013) EISSN : 2600-643x

ملامح العنف ضدّ المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي

الأستاذة مليكة الحاج يوسف
قسم علم الاجتماع ـ جامعة زيّان عاشور(الجلفة)

مقدمة:

تظهر ملامح العنف ضدّ المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي من خلال ما تعكسه ظروف وشروط مكانتها ووضعها المحصور بين نقيضين الناجمين عن اختلالات في المواقف النّابعة من ازدواجية الثّقافة ومن ازدواجية الأحوال الاجتماعية التّي مرّ بها النظام الاجتماعي في مختلف تمظهراته العامّة، إذ يتّضح من خلال تلك الملامح أنّ المرأة في هذا المجتمع مُحترمة و مُحتقرة في آن واحد، لأنّ المجتمع العربي بخصوصياته الثقافية والمجتمع الجزائري تحديدا عانت فيهما المرأة كبتا وجمودا، وعاشت حصارا فكريّا واجتماعيّا في مختلف مظاهر الحياة والتّي أثّرت بدورها تأثيرا قويا في مكانتها ووضعها.

ـ مكانة المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي:

قبل أن نتطرّق إلى مكانة المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي تجدر الإشارة إلى التركيز على وضعيتها في المجتمع الجزائري أو في المنطقة المغربية قبل الإسلام، فعلى ما يبدو لم تكن وضعيتها في هذه الفترة رتيبة ولا واضحة المعالم إلا من خلال بعض الاستنتاجات القائمة على تفسير الرّسوم والآثار والمرويات التي خلفتها شعوب المنطقة، ففي العهد الرّوماني مثلا كانت هناك مبالغة في اتخاذ الزّينة والتجمّل واستعمال الحليّ البربرية الفاخرة، و قد كان البربر منغلقين على أنفسهم والأسرة البربرية هي أسرة أبوية تخضع لسلطة الجماعة وقوانينها العرفية ويمارس الأب في هذا النّظام سلطته على أفراد أسرته وعلى النّساء خصوصا، وإن لم تكن صورتها واضحة المعالم فذلك يرجع لتأثير المدّ الأجنبي على المنطقة المغربية وهناك بعض الدلائل تشير إلى تفوّقها أحيانا بحيث بدت في مركز قوّة وسلطة كالمشاركة في الحياة السّياسية أو إشراك قوتها السّلطوية، ويستدلّ بذلك غالبا بمستلات من السيرة الذاتية لشخصيّة الكاهنة البربرية " **السيدة ديهية**"، تلك الشّخصية القويّة التّي كانت لها كلمة مسموعة بين قومها ومأثّرة ويشار إلى أنّ أوّل ثورات طلب الاستقلال ارتبطت باسم امرأة ... [1]، التّي وجّهت أهل المنطقة إلى خوض غمار الحرب ضدّ الفاتحين العرب للمنطقة..الخ.

لقد كانت المرأة في هذا المجتمع وخاصّة في بيتها صاحبة الرّأي والمشورة والسّلطة والعصمة، هذا الرّأي الأوّل وهناك رأي آخر يقول أنّ مكانتها كانت متدنّية، قد كُلّفت بالعمل الشاقّ والزّراعة وتكاليف العمل المنزلي...الخ، و حُرمت من

الإرث، وكانت السّلطة الأبوية هي السّائدة والمتحكّمة في مصيرها، هذا حال المرأة تقريبا في جُلّ الحضارات السّابقة، وقد تواصلت فيما بعد، فحالها لم يكن بأحسن حال في هذا المجتمع، وعموما فالمرأة كانت في وضعية التّابع لسيّدها، عليها المحافظة على القيم والمعايير والتّقاليد والموروث الثّقافي بشقّيه المادّي (اللّباس والحليّ وصناعة الفخّار...)، والمعنوي (الأساطير والأمثال والحكم والأغاني....)[2].

بينما عن طبيعة حالها بقدوم الإسلام فقد رافق أو وازى وضع المرأة المسلمة آنذاك كما ساير التغيّرات التّي شاهدتها بعد الدّعوة، وفي عهد الدلو الإسلامية البربرية هناك من شاركن في الحياة الفكرية والسياسيّة والدينيّة وعرفت وضعيتهن أيضا التّراجع بتراجع الدّولة الإسلامية وانحطاطها وامتلأت قصورهم بالجواري والخادمات من مختلف الأعراق والأنساب، كما انتشرت الخرافات والبدع واشتدّ الحجر على المرأة، فزادت تخلّفا وتدنّت مكانتها على مستوى البناء الاجتماعي ونلمس هذا الوضع أكثر في العهد التركي ـ العثماني بفقدانها للكثير من الحقوق كالتّعليم والحق في الإرث....[3] .

بتوالي الانقسامات بين شرق وغرب، طوائف ومماليك وما إلى ذلك، كانت المنطقة مهيّأة للحماية التركية ـ العثمانية التّي زادت سياستها وعاداتها وبنيتها تقسيما للمنطقة، ذلك أنّ المجتمع الجزائري عُرف بعادات وتقاليد وأعراف تختلف في الكثير من الجوانب عن طباع و بنية الأتراك ـ العثمانيين، الأمر الذّي أدّى بالمرأة إلى الانزواء والانعزال أكثر، وكان المجتمع الجزائري بذلك خاضعا للطبقيّة "يحكمه نظام إقطاعي تديره طبقة إقطاعية تركية مترفة، إلى جانب فئة قليلة من الأعيان الجزائريين وكان هؤلاء الذّين يمثّلون السّلطة الحاكمة في البلاد يعيشون في ترف وبذخ ويزدادون غنى يوما بعد يوم فيما كانت غالبية المجتمع وهم الفلاّحين يعانون من الجوع و الفقر المدقع..."[4].

هكذا وباشتداد واستبداد هذا النّظام انحدرت مكانة المرأة أكثر، ونشير هنا أنّ مكانتها اختلفت بتباين المراحل الزّمنية التّي مرّ بها التّاريخ التركي ـ العثماني وباختلاف فئات المجتمع وطبقاته وبتنوّع المناطق والأعراف التّي سيطر عليها الأتراك ـ العثمانيون.

لقد تمتّعت نّساء الأتراك ـ العثمانيون بمكانة أحسن من مكانة الفئات الأخرى، وكان لهم فسحة للتّرف والجنس، وامتلأت قصورهم بالحريم والجواري والخادمات وازداد عدد النّساء عبر المظاهر التّي عرفتها الدّولة خاصّة الحروب والغزوات المتوالية ضدّ الخصوم والصّراعات الدّاخلية التّي كان الباب العالي يتولّى توجيهها من بعيد وهو منهمك بملذّاته.... وقد بلغت أعدادهنّ أرقاما قيّاسية في تلك العهود مع مظاهر التّرف التّي عاشها هؤلاء، وكانت المرأة إحدى الأشكال الدّاعية للترفيه الذّي سعوا إلى تحصيله بأيّ ثمن.

نتيجة لتردّي أوضاع المجتمع، تردّت وضعيّة المرأة بعد انحراف سياسات الدّايات والسّلاطين عن سياسة البلاد (الإمبراطورية المريضة) والاختصاص في مختلف مظاهر الترف " ... لقد ساءت الحالة السّياسية إلى حدّ كبير وأقفرت دور العلم والأدب وتردّت الحالة الفكرية والاجتماعيّة، وأصبحت البلاد مهيّأة للسّقوط في مرافق الحياة المادّية و العقلية..."[5]. تفشّى الجهل والفقر وزادت الحملات والغزوات الأجنبية (الإسبانية الفرنسية...) ونال المرأة ما نال المجتمع بل أكثر من ذلك وخاصة ما يتعلق بالأمّية، الجهل، الإيمان بالخرافات والبدع وما إلى ذلك...)، فالعبوديّة النّسائية باختلافها رافقت هذا النّظام بشكل ملفت وهو الأمر الذّي عصف ببعض المجتمعات العربية والجزائر على وجه التّحديد.

رغم كل هذه المظاهر فإنّ المرأة في الرّيف والبادية والمدينة كانت راعية على بيتها وشؤونه، مربّية لأطفالها، قائمة على الكثير من أمورها وانشغالاتها، لكن في انزواء نتيجة للظّروف التّي مرّت بها المجتمعات العربية الإسلامية، واشتدت وطأة هذه المؤثّرات بإيجابياتها وسلبياتها بتداخل ظروف وعوامل متنوّعة ساهمت في تشكيل المجتمع العربي والجزائري وهي التّشكيلة الموسومة بالتّقليدية الضّاربة في القدم، والمتداخل مع التّاريخ الإسلامي فكيف تتجلّى مظاهر العنف ضدّ المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي؟

إنّ المجتمع الجزائري التّقليدي هو ذلك المجتمع الذّي كان موجودا بميّزاته وخصائصه التّي حاول الإسلام القضاء عليها وتعديلها وتصحيحها، وقد ظلّ هذا المجتمع قائما بصفتيه التّقليدية والأبوية وفي بنيته وأنماطه وقيّمه التّي أعطت السّلطة المطلقة للرّجل وفرضت على المرأة قيودا وخضوعا مطلقا، " إنّ حجر الزّاوية في النّظام الأبوي يقوم على استعباد المرأة... والأبوية أوّل ما تتمثّل في نزعتها السّلطوية الشّاملة، التّي ترفض النّقد ولا تتقبّل الحوار..."[6].

يُلاحظ هنا أنّ هذا النّظام الأبوي التّقليدي هو مجموعة "مكوّنة من الأب وأبنائه المتزوّجين وزوجاتهم وأولادهم وأحفادهم المتزوّجين وزوجاتهم وأولادهم و كلّهم يعيشون تحت سقف واحد..."[7]. والمكانة الاجتماعية لأفراد الأسرة مبنية على شكل هرمي، فمن حيث الأهمّية يأتي الذّكور أوّلا وذلك حسب ترتيبهم العمري ومركزهم الاجتماعي يليه العامل الاقتصادي، ثمّ النّساء المختلفات في المكانة حسب موقعهنّ في العائلة الأمّ أوّلا أمّ الذّكور ثمّ الزّوجة فالإبنة ثم الأدنى فالأدنى...الخ، والأب هو من يحافظ على الإرث ويقوم بتبعات الزّواج واختيار الزّوجات للأبناء والأزواج للبنات وإرث البنت يبقى في العائلة لذلك تُزوّج من ابن العمّ وعند وفاة الأب تؤول السّلطة للإبن الأكبر (الذّكر)، وتُملي العادات والتّقاليد شروطها على المرأة أهمّها عدم تدخّلها في شؤون الزّوج وعدم استشارة الزّوج لها والتزامها بالطّهر والعفاف...، فواقع المرأة بالتالي كما يبدو في هذا المجتمع التقليدي الجزائري واقع يتقبل كلّ ما يُفرض عليه، حتّى أصبح شيئا طبيعيّا بل جزءا من أنوثتها المقرّرة "...

فهي الأنثى، وما يتبع أنوثتها من متاعب وأعباء لا تُحسب لها، لكونها أمورا حيوية تعتمد عليها الحياة لتستمر وتبلغ غايتها..."[8].

لقد أكّد الكثير من علماء الاجتماع أنّ واقع المرأة في أيّ مجتمع، يُشكّل معيارا نتعرّف من خلاله على درجة نمو ذلك المجتمع وارتقائه، وحدود هذا الارتقاء هي ذاتها حدود ارتقاءً وتغيير مكانة ووضع المرأة في المجتمع، فحيثما يكون هناك تخلّف وركود وحرمان فإنّ للمرأة نصيب منه، بل ويحاول النّظام الموسوم بالتّقليدي – الأبوي الحفاظ عليه وإعادة إنتاجه في أدبياته وأقواله وذهنيته أو مِخياله بصفة عامة.

المجتمع التقليدي الجزائري لم يكن معزولا عمّا كان عليه المجتمع العربي الإسلامي وباقي المجتمعات الإنسانية والأحداث التّاريخية التّي شاهدتها المنطقة في حركة تبادل وتأثّر وتأثير قبل الفتح الإسلامي ثمّ بعده وكذا الأحداث التّي عرفتها المنطقة المغربية وما كان عليه وضعها في تلك الحقب قليل إلاّ ما تعلّق بالحملات الاستعمارية والغزو أمّا عن حياة المرأة الاجتماعية بالذّات فلم توجد دراسات بالمعنى المعمّق الذّي يشرح حالها و وضعها.

تتجلّى مظاهر هذا المجتمع حسب العديد من الدّراسات في القرون المتأخّرة يعني القرن السّابع عشر والثامن عشر حتّى القرن العشرين، وأهمّ ما يميّز وضع ومكانة المرأة في هذه الفترات ـ ما بعدها و ما قبلها ـ هو تدنّي مكانتها ومركزها، ويلاحظ في هذا المقام أنّ وضعها لم يكن على نفس الوثيرة فقد كان هناك فرق بين حياة المرأة الوجيهة الأرستقراطية وحياة المرأة العامّة، وهنا لا يمكن الحديث أو تناول أوضاع المرأة الجزائريّة في المجتمع التقليدي الجزائري بطريقة مشابهة، فالمرأة في المجتمع التّقليدي التّي كانت تحيا حياة العامّة من الناس نجد منها من كانت تعيش حياة الاحتجاب والانزواء ومن كانت تعمل في الزّراعة والحقول وأيضا في قطاع المنتجات والصّناعات التّقليدية، والأغلبية السّاحقة كانت محرومة من التّعليم وممنوعة من المطالبة بالحقوق وغيرها.

بعد ذلك زاد الاستعمار من النّيل منها، بل واللّجوء إلى سلبها وتجريدها من حقوقها لتزداد حالتها سوءا، فقد استطاع النظام الاستعماري العالمي أن يسلب بعض الأوطان العربية ـ الإسلامية ومنها الجزائر خاصّة ثرواتها المادّية والمعنوية والجغرافية ويطمس حقائقها الإنسانية وتاريخها، فعانت الذلّ والهوان والفقر والأمّية، وكلّ هذه الظّروف كانت وبالا على المرأة، بحيث كان لها نصيب منها بالإضافة إلى ما كان سائدا من معايير وقيم متّصلة بالمجتمع التّقليدي ومقيّدة برموزالعيب والحرام الحشمة، الحرمان من التعليم، الاختفاء والانزواء، الاختزالات السّلبية الدّونية والتّبخيس، دور محصور في الإنجاب والعناية بالبيت والأطفال دون غيره من الأدوار... فالمرأة واحد من اثنين إمّا أمّ وزوجة مطيعة وَلود تلد الذّكور دون الإناث، قارّة في بيتها ترعى أطفالها...وإمّا جسدا مؤنّثا وأداة إغراء وإغواء أدنى من الرّجل، وتحت وصايته وحمايته وتبعيته، ويلاحظ أنّ

مختلف هذه الوضعيات والرُّؤى لا تعمل على تفتّح فكرها ولا تردّ لها اعتبارا كذات واعية وواثقة من نفسها...

كان الاستعمار بالمقابل ينخر في جسد الأمّة زاد الطّين بلّة حيث تأزّمت وضعيّة المرأة فشدّد عليها وعزلها اجتماعيا واقتصاديا حتّى وصل الأمر إلى حد الإضرار بها، ممّا أدّى ذلك إلى عزلها عن المحيط الاجتماعي عزلا تامّا، فأدّت هذه الظّروف إلى تجهيلها وتهميشها وتخلّفها بشكل عامّ ورغم محاولات الاستعمار المساس بمقام وكرامة الإنسان الجزائري (المرأة والرّجل معا)، كانت الأسرة مع كلّ ذلك تُعتبر خليّة اجتماعية أساسيّة، خليّة اقتصادية للإنتاج والاستهلاك، خليّة سياسيّة تحت سلطة قائد واحد، ربّ الأسرة وهو الأب أو الجدّ الذّي يتّخذ القرارات، يُسيّر الأمور...يُقسّم العمل..."[9].

إن النّظام الأبوي التّقليدي هو نظام مكون من بنية سيكولوجية، اجتماعية وثقافية تاريخية تتميّز بكثير من الخصوصيّة بالنّسبة للمجتمع الجزائري، والتّي تقوم على عناصر القرابة والنّسب وكبر حجم العائلة وكثرة التناسل والزّواج من الأقارب وتعدّد الزّوجات، فهو يجمع ثقافة تتّسم بالخصوصيّة، إنّها الثّقافة التّقليدية المتميّزة بعناصر ومنها: رموز، أساطير، أحكام مسبقة، محرّمات، وكل ما يصلها بالماضي ويؤثّر في حاضرها بحيث تحافظ على العادات والتّقاليد والمعتقدات الأساسيّة المنشأة والملقاة عن طريق التّربية العائلية والدّينية، فعن طريق هذه العناصر تتحدّد مكانة الرّجل ومكانة المرأة، بوجود مقسّم إلى عالمين واحد للرّجال وآخر للنّساء منفصلان كلّيا.

الرّجل كسيّد للمجال في الطّرقات، الأسواق الأماكن العامة الأسفار، مقابل المرأة التّي تقضي جلّ حياتها داخل البيت، ومنه فالمرأة محصورة في المجال الداخلي (البيت وما يحيط به) والرّجل يملك المجال الخارجي، للرّجل الحرّية المطلقة في اختراق هذا العالم وهذا المجال بينما المرأة مجالها محدّد ومحصور في الدار، لا مجال لها في العالم الخارجي، العالمان منفصلان ومحدودان جغرافيا وحتّى إن كان الرّجل في المجال الدّاخلي، فله حرّية التصرّف والاحتراف والطّاعة التامّة له يُنفّذها الآخرون خاصّة المرأة والطّاعة تشمل كبير العائلة كالأب القائم على شؤون البيت، إذا أراد أمرا الكلّ يطيع له، فالرّجال يتكلّمون بصوت مرتفع ويعطون أو يصدرون الأوامر الصّارمة بينما النّساء يخضعن مطيعات مذعنات، فلا مجال للحوار بين الرجل والمرأة ... الرجال يتكلّمون فيما بينهم والنّساء يتكلّمن فيما بينهنّ.

يبدو جليّا أن المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي ألزمت بمجموعة من القواعد الصّارمة التّي إن حادت عنها لاقت الاستنكار والإهانة، وأهمّ هذه القواعد والمعايير، الطّاعة وعدم الحديث في حضرة الرّجال...الخ. ورغم ذلك فإنّ ملامح العنف ضدّ المرأة في المجتمع التّقليدي الجزائري تُعرف عبر المظاهر التّي سنستعرضها وهي تتّسم بالخصوصية والتفرّد في الكثير من الجوانب ومنها:

1)- الإنجاب وتفضيل الذّكورة:

يعدّ مظهر تفضيل الذّكورة من القيم التّي سادت معظم المجتمعات العربيّة وخاصّة المجتمع التّقليدي الجزائري، فمنذ عهود سابقة ميلاد كان الذّكر مفضّلا وممجّدا، ولادته تثير الفرح والبهجة في الأسرة عكس الأنثى التّي تثير مشاعر معاكسة، في المجتمع التقليدي الجزائري الذّكر يُستقبل بالزّغاريد لأنّه يمنح الأمّ قيمة اجتماعية ويساهم في استمرار النّسب " إنجاب الذّكور له دور كبير في تحديد مكانة المرأة داخل العائلة، بحيث أنّ مجدها يكمن في إنجاب الذّكور...[10]. وكلّما كان عددهم كبيرا كلّما عزّزت المرأة مكانتها وبهم تستمرّ العائلة ويُمثلون قوّة عاملة منتجة للعائلة ومصدر حماية، لذلك يُحتفى بهم، بينما الإناث لا نصيب لهنّ في مثل هذه المكتسبات لكونّهنّ يمثّلن خيبة أمل الأمّ والعائلة، وتنعكس مسؤوليّة إنجابهنّ بالأمّ وحدها، فهذا هو" موقف المجتمع والعائلة من المرأة التّي تلد إناثا فقط، موقف يُصنّفها بنفس مستوى العاقر، كلتاهما تُعتبران جالبتان للشرّ، مسئولتان عن ضياع اسم العائلة..."[11]، وهنا يتمّ التّمييز بين الذّكورة والأنوثة ليتدنّى وضع ومكانة المرأة، وكلّ فرد يكتسب هذا التّمييز عبر عمليّة التّنشئة والتّعامل وغيره.

2)- التّنشئة و طرق المعاملة:

طرق المعاملة والتّنشئة التّي يتلقّاها الجنسان مختلفة تماما، بحيث أنّ ما يتلقّاه الذّكر في هذا المجتمع غير ما تتلقاه الأنثى "بالنسبة للذّكر فهو يُربّى على تأكيد الذّات والثّقة بالنّفس تُنقل له عدّة رسائل من قبيل " أنت جميل، قويّ، شجاع..."، رسائل إيجابية دائما ومقوّية لذاتيته، فيكون بذلك أكثر ثقة بنفسه[12]، بينما الأنثى تُلقّن العكس فهم ينقلون لها رسائل سلبية من قبيل " لا تستطيعين فعل هذا ولا ذاك، أنت ضعيفة، هذا ممنوع عليك..." فتكون دائما بحاجة إلى حامي، لن تستطيع اتّخاذ القرارات بنفسها، هي دائما تابعة وكي تُقبل يجب أن تطيع القوانين والقواعد والمعايير الاجتماعية اعتمادا على السّلطة الأبويّة التّقليدية.

3)- الطّاعة العمياء لربّ الأسرة:

لمّا كان الأب على رأس العائلة فإن السّلطة تؤول إليه باعتباره السّاهر على حمايتها وتأمين بقائها واستمرارها وتعمل زوجته وأبناءه وزوجاتهم والأحفاد على طاعته والولاء له، إنّ العائلة التّقليدية الجزائرية تقوم على هذا النّوع من المعايير وتُدعّمه الثّقافة والبناء الاجتماعي الذّي يُعلّم أفراده على الخضوع والطّاعة لرب الأسرة، خاصّة المرأة كبنت زوجة، أمّ...إلخ، وهنا يظهر نوع من التّراتب التسلسلي داخل الأسرة الجزائرية أوتراتب هرمي قاعدته النّساء وقمّته الرّجال (ربّ الأسرة، كبيرها...)، ومن مظاهر هذه التّراتبية أيضا أنّ الابن كان لا يقدّم طلباته مباشرة إلى والده، بل أنّه يُبلّغها إلى والدته وهي بدورها ترفعها إلى الزّوج، وإذا ما أراد هذا الأخير من أحد أبنائه أن ينفّذ له أمرا أرسل الابن الأكبر ليعطيه التّعليمات، أمّا الجدّة والجدّ فكانا السّتار الدّائم والسّميك الذّي يتوارى خلفه الأبناء وعزّز هذه التّراتبية وجود حدود تحفظ كلّ فئة داخل إطار مقامها فتظهر بالتّالي داخل الأسرة فئات مكوّنة من فئة النّساء، الأطفال، الشّباب، ثمّ ربّ الأسرة وكل فئة تعيش حدودها

وللنّساء عالمهن الخاصّ، لا يشاركن الرّجال في الحديث والآراء وحتّى الطّعام...الخ والمعاملة بين الزّوجين تتّسم بالمحايدة والقسوة والتحفّظ، ولربّ الأسرة طرق معاملة تتّسم بالهيبة الزّائدة وأحيانا القسوة، ذلك أنّ : "...سلطة ربّ الدّار تمتدّ إلى حقّ الحياة والموت للنّساء والأطفال في أسرته، فإذا كان عليه أن يدافع عن نسائه ضدّ عدوان الآخرين، فإنّهن لا يملكن حقّ حماية أنفسهنّ منه..."[13].

4)- أهمّية الزّواج:

يهتمّ المجتمع التّقليدي بالزّواج خاصّة تزويج المرأة في سنّ مبكّر، فالمرأة دائما بحاجة إلى زوج يحميها ويرعاها، ويُحقّق مكانتها ويضفي على وجودها صفة الشّرعية والاعتراف الاجتماعي عكس العنوسة التّي تحصرها في مكانة أدنى، وبعد الزّواج يُنتظر منها الإنجاب والتناسل، فالمرأة في إطار المجتمع التّقليدي لا تنتظر شيئا من الزّوج لكن تنتظر من ذلك أبناء فالزّوج قيمة غير ثابتة يمكن أن يذهب أو يطلّقها أو يكرّر الزّواج ولأهمّية الزّواج كان الرجل يجمع عدّة زوجات في بيت واحد من أجل الخدمة وإنجاب أبناء يخلّدون اسم العائلة.

من مظاهر المُصاحِبة للزّواج أنّ الأبناء لم يكن لهم الحقّ في اختيار زوجاتهم بل للأهل الحرّية في الاختيار والموافقة أو الرّفض، كذلك سادت عادة الوعد بالزّواج لوالد الفتى في سنّ مبكرة، لم يكن للفتاة والفتى الحرية في اختيار الشّريك ويعلمان بموعد الزواج في اليوم الذّي تحدّده العائلة (رب الأسرة غالبا)، ولم يكن هناك مجال لا للّقاء ولا للتّعارف وفُرضت العزلة والانزواء حفاظا على القيم والتّقاليد الاجتماعية، ويحفظ في هذا المقام حقّ ابن العمّ للزّواج من ابنة عمّه (زواج العمومة) كي يحفظ الإرث والأرض.

5)- حجب و عزل النّساء:

يشمل حجب وعزل النّساء ثلاث أشكال: الحجاب، الاتزار وعدم مخالطة الرّجال وقد أوجد المجتمع مجموعة من التدابير جُلّها يتمحور حول الحجب والعزل والحجر على النّساء، ومنعهن من الخروج من مساكنهن والعيش في عالمهن الخاصّ " فلطالما اعتبرت المرأة كائن مبتور، ناقص، قذر... عار وجب أن يُخفى وراء الجدران ولكن حتّى الاسم نال جزءا من هذه القذارة وهذا العار، فالرّجل الجزائري، عندما يتكلّم عن زوجته لا يستعمل أبدا كلمة امرأتي بل يفضّل كلمة المرأة.

كلّ هذه التدابير والمظاهر تعبّر عن عمليّة العزل والحجب التامّ للمرأة عن الرّجال وشمل الحجب كذلك منعها من التطلّع إلى الخارج عبر الجدران والسّتائر هذا يعني الحجب المكاني، وشمل الحجب أيضا العزل العقلي والذّهني فتفشّى في وسطهنّ الجهل والأمّية والإيمان بالخرافات والشّعوذة والسّحر وادعاء المسّ والجنون وغيره.

نتيجة لِما مرّ به المجتمع التقليدي الجزائري، فقد افتقد للكثير من دور العلم إلاّ ما اقتصر على المدارس القرآنية (للذّكور خاصّة)، وكانت جلّ المعارف معتمدة على الخيال والوهم والسّحر، كما كان للأفكار السّائدة عن تجنيب المرأة العلم دور

كبير في تجهيلها وأمّيتها ودونيتها، لقد كانت ثقافتها تقوم على الأساطير والحكايات والسيّر والكرامات (الصوفية) وشيوع الخوارق، والسّحر والشعوذة والتمائم، بحيث كانوا يلجئون للخرافات ويتعلّقون بالأوهام.

لقد كانت المرأة هي الأكثر تعلّقا بهذه الأوهام وتجاوبا مع الخرافات السائدة وتواصلت هذه الوضعية على نفس الوتيرة حتّى القرن الماضي (ق**20**) حيث تداخلت عدة عوامل منها الموضوعية ومنها الذاتية لتغيير وضع المجتمع، إلاّ أنّ وضع المرأة بقي يتحرّك ببطئ شديد وكانت مكانتها أدنى من الذّكر على مستوى الكلمة والخطاب الاجتماعي (العار الغواية...الخ) والمرأة الوحيدة التّي كان لها متنفّس في كنف أبنائها الذّكور هي " المرأة العجوز، المسنّة في المجتمعات المغربية، بحيث كانت تتّخذ القرارات بقوّة وبحريّة تامة..."[14].

ما يلاحظ أنّ مختلف الوضعيات التّي حُصرت في إطارها المرأة لا تعمل على تفتيح فكرها ولا ترد لها اعتبارا كذات واعية واثقة من نفسها ،فكان الاستعمار كجسد دخيل ينخر في كيان المجتمع والأمّة فزاد الوضع تأزّما، وزاد الحجر والتشدّد على المرأة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا...الخ، و على العموم فإنّ ما عاشه المجتمع التقليدي الجزائري في تقليديّته ما هو إلا امتداد للسّلطة الاستبدادية والظّروف التّي عاشها المجتمع العربي الإسلامي في عقود تاريخية ماضية خاصّة الاستبداد العثماني والاستعماري.

لقد أفاضت الأقلام في الكتابة حول هذا المجتمع خاصّة الأقلام الاستعمارية حول خصائصه أو خصوصيته ومظاهره ومميّزاته، بدراسة انقسامية ذات منحى استعماري مُركِّزا على المرأة باعتبارها عماد المجتمع وأساسه، رغم التصوّرات التّي حصرت في إطارها والتّي تحتاج إلى فهم وتحليل وبحث يمسّ مختلف الجوانب الثّقافية والاجتماعية والدّينية والأسطورية وحتّى الخطاب الأدبي المتمثّل في الأدب الشّعبي بمختلف أشكاله ومضامينه.

ـ الهوامش والإحالات:

1- Merad (Ali), **Le réformisme Musulman en Algérie de 1925 à 1960 essai sur l'histoire religieuse et sociale,** Paris, Ed puf, 1967, P16.

[2]- Charles André (Julien**), L'histoire de l'Algérie du nord**, Alger, SNED, 1978, p36.

[3]- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج1، **1998**.

[4] - مبارك بن محمد الميلي، **تاريخ الجزائر القديم و الحديث**، الجزائر، مكتبة النهضة ، **2004**.

[5] - ميرات العيد، **" الأصول التاريخية لنشأة المسرح الجزائري**، دراسة في الأشكال التراثية" مجلة إنسانيات، الجزائر، العدد **12**، ص **11**.

[6] - السعافين إبراهيم، **مدرسة الإحياء و التراث**، لبنان، دار الأندلس، بدون سنة، ص **29**.

[7] - شرف الدين فهيمة، **أصل واحد و صور كثيرة، ثقافة العنف ضد المرأة في لبنان**، بيروت دار الفارابي، ط **1** ، **2002** ص **13**.m

[8]- Marouf (Chafika), "**Etat de la recherche sur le monde féminine et la famille en Algérie et** au Maghreb", journée d'études 2-4 juin in ORASC femme, société, Alger, 1987, P15.

[9] - ميمون الربيع، **" واقع المرأة في المجتمعات البشرية و وضعها في القرآن الكريم** «، مجلة المجلس الإسلامي الأعلى الجزائر، العدد**3**، **2000** ص **209**.

[10]- Ramzi Abadir (sonis**), La femme arabe au Maghreb et au Machrek**, Alger, Entreprise nationale du livre, 1986, p 91.

[1]- Lacoste du jardin (Camille**), Des mères contre les femmes,** p83.

[2]- Mostaganemi (Ahlem**), Algérie, femme et écritures, paris**, Editions l'harmattan, 1985, p 454.

[3]- Boudefa (saliha), **L'image de la femme dans les discours**, P218.

[14]- راغب نبيل، **أخطر مشكلات الشباب**، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2003 ص128.